QIJIS
QUDUS INTERNATIONAL JOURNAL
OF ISLAMIC STUDIES

مراعاة النظير في اللغة العربية. دراسة بلاغية

محمد يوسف أحمد هاشم

Email : yusuf_hasyim75@yahoo.com

ABSTRACT

The cut counterpart for the counterpart of the topics are perceptions of scientific research accurately and insight, between scohlars rhetoric, critics and Expositor alike extreme, because it carries Deludes in meanings and buildings and context, which is similar to what was known incompatibility between reasonable and transfused between Grammer and the text, when Jurisprudence fundamentalists, but this is worse than that because this position proceed text in Connotations and Installations,while the conflict between reasonable Amnicol when jurisprudence fundamentalists, often Ertpt text by Elicitation, makes some orientalists and westerners takes it as catch prey to stab in the Qur'an,

All this is mainly due to the lack of people from their study of arabic philology and her poerts to understand the different methods and this what the writer tried to reach him this thread

***Keywords**: meanings, buildings, context, grammer,*

التمهيد:

لاشك أن الحديث عن علم البلاغة غالبا ما يحمل في طياته، طابعا خاصا عن بقية العلوم،سواء كانت العلوم الشريعية أو اللغوية أو غيرها،وإن كان كل فروع العلم لها قيمة عند أهل العلم،لأن العلم من حيث كونه علما قيمة، مع صرف النظر عن المعلوم،»كما قال

شيخنا أحمد أبوموسى شيخ البلاغيين -بارك الله فى عمره وجميع مشايخنا-، ولا يفهم هذا الطبع إلا من يفهم،قول عبد القاهر: في كتابه أسرار البلاغة» لولا البيان لكان الإدراك كغيره من الأضرار» هذا في كلام الخلق فما بالك في كلام خالق البيان والمبين؟ فهي قضية مسلمة لما له من رفعة المنزلة وعلوالشأن،وشرف المعنى والمقصد، بفضل القرآن الكريم والأحاديث النبوية،وأيضا إن الرجل البلاغي خليفة الله في بحثه عن إعجاز القرآن يبلغ عن الله في كلامه ومقاصده، إلى عباده، فعليه أن يتعلم كيف يفهم العلم المستور بعد فهمه للعلم المنظور،ومما يعين الإنسان على ذلك هو دراسة الشعر وفقه اللغة العربية من تراث العلماء دراسة متأنية مستثمرة، أي الرجل البلاغي خليفة رسول الله في مقاصد أحاديثه الذي جاء مبينا للقرآن، ولقد رأينا حربا شرشة تشن من قبل أعداء القرآن والإسلام على القرآن والطعن فيه من كل باب،ومن هذا الطعن، ماورد في القرآن من أساليب اللغة العربية على خلاف القاعدة المعروفة لدى العام والخاص،ولعل هؤلاء جاهلون عن بعض أساليب العرب أو يؤمنون ببعضها ويكفرون ببعضها لتسنى لهم الطعن في القرآن الكريم،والذي أعطى هذا الطعن شيئا من الرسم هو بعدنا عن البحث العلمي الجاد في القرآن وتفسيره، وبعد أكثرالمتخصصين فى تفسير القرآن وبلاغته عن المنهج السليم في دراسة تخصصهم،فالمفسرون والبلاغيون من مشايخنا القدماء كانوا موسوعيين لأنهم هدوا إلى المنهج السليم،وعلموا أن التفسير هو البحر الذي لايسبح فيه إلا المهرة البررة،

ولهذا سيدور حديثي معكم في هذا البحث القصير من هذا المنطلق. بعنوان : مراعاة النظير في اللغة العربية،أبين فيه كيف كان استعمال القرآن لتلك الأساليب المخالفة للقواعد النحوية المعروفة، هو أبلغ وأدق لأداء المراد في مكانه،لأنه من فقه اللغة العربية،ولأنه ورد في مصدرهم الأول قبل نزول القرآن في أشعارهم ونثرهم،ليكون أقوى رد على المستشرقين والمستغربين الطاعنين في القرآن الكريم بجهلهم لأسلوب فقه اللغة العربية وجهلمهم بأساليب القرآن الكريم.

كالتناسب والتلاؤم بين الشمس والقمر، والظلّ والشجر، والزَّهْرِ والثَّمَر، والإبِلِ والبقر، والْقَوْسِ والْوَتَر، واللَّيْلِ والسَّمَر، والْوَعِلِ والجَبَلِ، والنَّعْجةِ والْحَمَلِ، والهوَى والشباب، والظّمأ والسَّراب، والعلم والكتاب، والضَّرْبِ والعذاب، إلى نحو ذلك ممّا لا يُحصْى. وألْحَقَ البلاغيون بمراعاة النظير ما فيه إيهام التناسب، كأن يكون اللّفظ مشتركاً بين معنيين: أَحَدُهُما يُنَاسب ما جاء في الكلام من معاني إلاَّ أنّه غير مراد، والآخر لا يناسِبُ وهو المراد.

وضربوا مثلاً لما فيه إيهام التناسب قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٧٩ نزول):

{الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}

ويجوز أن يريد بالصديق الجمع

وقال السهيلي: في الروض الأنف إذا قلت عبيد ونخيل فهو اسم يتناول الصغير والكبير من ذلك الجنس قال الله تعالى :{وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ} وقال {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} وحين ذكر المخاطبين منهم قال العباد ولذلك قال حين ذكر التمر من النخيل {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} و{أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ} فتأمل الفرق بين الجمعين في حكم البلاغة واختيار الكلام !

وأما في مذهب اللغة فلم يفرقوا هذا التفريق ولا نبهوا على هذا المعنى الدقيق

ومنها اختلاف الجمعين في قوله تعالى: { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ} إلى قوله: {وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ} وقال: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً} فأما وجه التفرقة بين الجمع في الموضعين وكذلك قوله: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ} إلى قوله: {أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ}

فخالف بين الجمعين في الأبناء وفي سورة الأحزاب {وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ}

ومنه قوله تعالى: {أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ} وفي موضع آخر {وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ} فالمعدود واحد

وقد اختلف تفسيره فالأول جاء بصيغة جمع الكثرة والثاني بجمع القلة

وقد قيلفي توجيهه: إن آية البقرة سيقت في بيان المضاعفة والزيادة فناسب صيغة جمع الكثرة وآية يوسف لحظ فيها وهو قليل فأتى بجمع القلة ليصدق اللفظ المعنى

تنبيه

جمع التكسير يشمل أولى العلم وغيرهم وجمع السلامة يختص في أصل الوضع بأولى العلم وإن وجد في غيرهم فبحكم الإلحاق والتشبيه كقوله {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} ،وعلى هذا فأشرف الجمعين جمع السلامة وما يجمع جمع التكسير من مذكر غير العاقل قد يتبع بالصفة المفردة مؤنثه بالتاء كما يفعل بالخبر تقول: حقوق معقودة وأعمال محسوبة قال تعالى {فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ}

وقال: {أَيَّاماً مَعْدُودَةً}

وقد يجمع بالألف والتاء في غير المفرد وإن لم يكثر إلا أنه فصيح ومنه {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ}

قاعدة نحوية

نون ضمير الجمع في جمع العلاقات سواء القلة كالهندات أو الكثرة كالهنود فتقول الهندات يقمن والهنود يقمن قال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ }: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ} هذا هو الأكثر.

وقد جاء في القران بالإفراد قال تعالى: {وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ} ولم يقل مطهرات

وأما جمع غير العاقل ففيه تفصيل

إن كان للكثرة أتيت بضميره مفردا فقلت الجذوع انكسرت وان كان القلة أتيت جمعا وقد اجتمعا في قوله: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ} إلى أن قال {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} فالضمير في منها يعود إلى الاثني عشر وهو جمع كثرة ولم يقل منهن ثم قال سبحانه {فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} فهذا عائد إلى الأربعة وهو جمع قله

فإن قيل: فما السر في هذا حيث كان يؤتى مع الكثرة بضمير المفرد ومع القلة بضمير الجمع وهلا عكس قلنا ذكر الفراء له سرا لطيفا فقال لما كان المميز مع جمع الكثرة واحدا وحد الضمير لأنه من أحد عشر يصير مميزه واحدا وهو أندرهم وأما جمع القلة فمميزه جمع لأنك تقول ثلاثة دراهم أربعة دراهم وهكذا إلى العشر تمييزه جمع فلهذا أعاد الضمير باعتبار المميز جمعا وإفرادا ومن هذا قوله سبحانه {سَبْعَةُ أَبْحُرٍ} فأتى بجمع القلة ولم يقل بحور لتناسب نظم الكلام وهذا هو الاختيار في إضافة العدد إلى جمع القلة

قطع النظير عن النظير بين القرآن والشعر. دراسة بلاغية.

وفيه ثلاثة مباحث :

الأول: قطع النظير عن النظير في المباني بين القرآن والشعر.

إن من المعلوم أن نظرية النظم عند البلاغيين قبل عبد القاهر هو أساس البلاغة،سواء كان فى الشعر أو النثر، وأن من مفهوم النظم عندهم إيجاد التناسب بين الكلمات،سواء فى اللفظ أو المعني أن عبد القاهر بنى نظرية النظم عنده على علم النحو فهو الذي قال: «واعلمْ أنْ ليسَ النظُم إلا أن تضعَ كلامَك الوضعَ الذي يَقتضيهِ علمُ النّحو وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه وتعرفَ مناهجَهُ التي نُهِجَتْ فلا تزيغُ عنها وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك فلا تُخلَّ بشيءٍ منها . وذلك أنَّا لا نعلمُ شيئاً يبتغيِه النّاظمُ بنظمِه غيرَ أنْ ينظرَ في وجوهِ كلِّ بابٍ وفُروقه.....»

وعلمنا أيضا أن النحويين لا يجيزون في تراكيب نحوية إلا عطف صيغة من الكلمة مع ما يناسبها من نفس صيغة، فلا يجوز مثلا عطف الماضي على المضارع أو العكس،وكذلك فى المفردات والجمع.وقد أوجبوا التطابق بين المبتدإ والخبر إلى غير ذلك..إذن نحن أمام نظرية

شبه المتفق عليها بين البلاغيين والنحويين إلا من أبى.

كما أن هذه النظرية أيضا أعنى التطابق في «الصيغ التركيبي» أوبعبارة أخرى التطابق بين الكلمة وأختها «وجد طريقها مبكرا عند البلاغيين قبل عبد القاهر وعرف بمصطلحات مختلفة،كالموخاة، والتناسب،والتوافق والائتلاف،وإيهام التناسب، وتشابه الأطراف، والتسهيم،ثم عرف عند السكاكي أخيرا بمراعاةالنظيرمما دل على أهمية هذا الأمر،حتى أصبح قاعدة مطردة لا مفر منها.

وكذلك الأمر عند النقاد الأوائل،ومنهم الناقد البصير أبو هلال العسكرى ت ٥٩٣هـ الذي تحدث في كتابه المشهور «الصناعتين»: عن ضوابط الصياغة بين الكلمة وأختها تحت» النظم» فيقول «وينبغي أن تجعل كلامك مشتبها أوله بآخره، ومطابقا هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراده، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها، فإن تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام ولا يكون ما بين ذلك حشو يستغنى عنه ويتم الكلام دونه».[١]

وقال الآخر:

وفي أربع منى خلت منك أربع ** فما أنا دار أيها هاج لي كربي

أوجهك في عيني أم الريق في فمي ** أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي[٢]

...وفي الشاهد الثاني نجد أن الشاعر قد جمع بين أمور متناسبة في هذين البيتين فقد جمع بين «الوجه والعين والفم» في صدر البيت كما جمع بين «النطق والسمع والقلب مع الحب» في عجز البيت.

وفي ذلك يقول د/بكري شيخ أمين في كتابه[٣] معلقا على البيت السابق قائلا: فقد لائم الوجه مع العين والريق مع الفم والنطق مع السمع والحب مع القلب وذلك غاية مراعاة النظير.

لكن ما ظنكم أن بعض الشعراء خالفوا هذه النظرية قصدا في صياغتهم الشعرية جملة وتفصيلا ومنهم أبو تمام،حيث وجه إليه النقاد سهامهم بسبب مخالفته تلك القاعدة شبه المطردة،عند النحاة والنقاد والبلاغيين ،فقد روى ابن الأثير بعض المرويات النقدية ثنايا حديثه في كتابه «المثل السائر بعنوان: المؤاخاة بين المباني

يقول ابن الأثير:»وأما المؤاخاة بين المباني فإنه يتعلق بمباني الألفاظ،فمن ذلك قول أبي تمام

[١] الصناعتين لأبى هلال العسكرى ٨٤١ ت- محمد إبراهيم أبو الفضل- ط- دار الفكر العربى

[٢] المصدر السابق –ص- ٨٤١

[٣] البلاغة في توبها الجديد ص ٧٣--٧٤، ط دار الملايين.

في وصف الرماح:

مُثَقَّفات سَلَبْنَ الْعُرْبَ سُمْرَتَهَا **والرُّومَ زُرْقَتَهَا وَالْعَاشِقَ الْقَضَفا[٤]

وهذا البيت من أبيات أبي تمام الأفراد، غير أن فيه نظرا وهو قوله (العرب والروم) ثم قال (العاشق)، ولو صح أن يقول (العشاق) لكان أحسن إذ كانت الأوصاف تجرى على نهج واحد ،كذلك قوله» سمرتها وزرقتها» ثم قال: «القضفا» وكان ينبغي أن يقول: قضفا أودقتها.

وكذلك ورد قول أبي نواس في الخمر

صَفْرَاءُ مَجَّدَهَا مَرَازِبُهَا** جَلَّتْ عَنِ النُّظَرَاءِ والمِثْلِ [٥]

فجمع وأفرد في معنى واحد، وهو أنه قال: «النظراء مجموعا «ثم قال :»المثل» مفردا وكان الأحسن أن يقول: «النظير والمثل» أو «النظراء والأمثال».

وعلى ذلك ورد قوله أيضا والإنكار يتوجه فيه أكثر من الأول وهو

أَلا يَا ابْنَ الَّذِينَ فَنوا فَمَاتُوا * أَما وَاللهِ ما ماتوا لِتَبْقَى

وَمَالَكَ فَاعْلَمَنْ فِيها مُقَامُ * إِذا اسْتَكْمَلْتَ «آجالاً وَرِزْقا» [٦]

وموضع الإنكار ها هنا أنه قال «آجالا ورزقا» وكان ينبغي أن يقول:» أرزاقا» وأن يقول: «أجلا ورزقا». وقد زاده إنكارا أنه جمع «الأجل» فقال: «آجالا» والإنسان ليس له إلا أجل واحد. ولو قال: «أجلا وأرزاقا» لما يعيب لأن الأجل واحد والأرزاق كثيرة، لاختلاف ضروبها وأجناسها[٧].»

لكن هنا سؤال في غاية الأهمية، وهو أن الشاعر الذى نقده ابن الأثير هنا في هذا البيت هو هو المنقود في البيت الذي قبله، وهو أبو نواس، وأيضا الخطأ أو المأخذ واحد، وهو مخالفة القواعد،لكن لماذا قال ابن الأثير في نقده للبيت الثاني بقوله:» والإنكار يتوجه فيه أكثر من الأول»؟إذن هناك سر كامن في تفاوت درجة الإنكار على المنقود عند ابن الأثير.

ولعل من تلك الأسرار أن النقد أن إتيان كلمة مفرد جمعا في الكلمات القابلة للجمع لايتأتى على كل حال،إنما لا بد من الضوابط تضبط مجيئها من عدمه، فإذا تتبعنا آيات القرآن من الفاتحة إلى الناس نجد أن القرآن لم يستخدم هذه الكلمة إلا مفردة، سواء في سياق الجمع أو المفرد،قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ

[٤] ديوان أبي تمام ص – ٢٠٠

[٥] انظر ديوان أبي نواس ص – ٤٢ – عن الشباب.

[٦] لم يعثر عليه الباحث فى ديوانه

[٧] المثل السائر لابن الأثير جـ - ٣ – ص – ١٨٦ – ت – أحمد الجوفي – ط – دار الرفاعي الرياض

يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [٨]

وزيادة على ما قاله ابن الأثير من أن الانسان ليس له إلا أجل واحد..»،نعلم أيضا أن النقد كما يكتسب قيمته من «لفظ النص» يكتسب قوته من «معنى النص» والعكس صحيح وبيان ذلك: هو أن في البيت الأول يتحدث فيه الشاعر عن الخمر، وهو من الملهيات المهلكات،لاقيمة له، فكان النقد الموجه كذلك أقل درجة للدلالة على أيضا، والله أعلم .

هكذا نرى هذه المخالفة في شعر شاعر،بل قد أكثر فيه بعض الشعراء مثل أبو نواس وغيره،وإن كان هناك قاعدة تقول: «يتسع في الشعر ما لايتسع في غيره»؟وغيره هو النثر الذي من نوعه القرآن الكريم،إذن، فهل ورد في القرآن هكذا أم لا؟ نعم! ورود هذا الأسلوب غير قليل في القرآن،ولا شك أن العلماء مجمعون على أفصحية أسلوب القرآن على الإطلاق،فكيف إذن يكون أفصح الكلام يخالف قاعدة البلغاء والنحاة في بعض تراكيبه وصياغته.؟ كقوله تعالى في سورة النحل ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[٩] فقد أفرد اليمين وجمع الشمال" وهاتان الكلمتان هكذا ورد في بعض مواضع القرآن، بينما في سورة المعارج قال: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [١٠] وقوله:﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾

يقول ابن الأثير معلقا على ذلك» وإذا أنصفنا في هذا الموضع وجدنا الناثرمطالب به دون الناظم لمكان إمكانه من التصرف. وقد كنت أرى هذا الضرب من الكلام واجبا في الاستعمال وأنه لا يحسن المحيد عنه. حتى مر بي في القرآن الكريم ما يخالفه، كقوله تعالى في سورة النحل ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾[١١]

ثم علق عليها قائلا: "ولو كان الأحسن لزوم البناء اللفظي على سنن واحد لجمع اليمين كما جمع الشمال أو أفرد الشمال كما أفرد اليمين". وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة هكذا. ولو كان هذا معتبرا في الاستعمال لورد في كلام الله تعالى الذي هو أفصح من كل كلام، والأخذ في مقام الفصاحة والبلاغة إنما يكون منه، والمعول عليه.[١٢]

ولاحظت في القرآن أنه إذا جاءت الآية في سياق الجهات الكونية جمع الشمال وأفرد اليمين،وحينما جاءت في سياق الحديث عن الجوارح أفردهما غالبا،كما في الآيات السابقة،أو

[٨] سورة النحل-آية- ٦١

[٩] سورة النحل آية – ٤٨.

[١٠] سورة المعارج آية- ٣٦-٣٧

[١١] سورة النحل آية – ٤٨.

[١٢] المثل السائر لابن الأثير الجزرى ج-٣ –ص- ١٨٧- ١٨٩ ت- بدوى طبانة –ط- دار الرفاعى بالرياض

جمعهما كما في قوله تعالى في سورة الأعراف:

وكذلك لفظ" الظلمات والنور"والسموات والأرض" لم ترد إلا هكذا في القرآن غالبا قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[١٣] وللمفسرين البلاغيين نكت كثيرة لمن يريد المزيد.

وهذا ما جعله بعض الهوس من المستشرقين والمستغربين نافذة طعنهم في القرآن حيث قالوا: إن في القرآن تناقضات ومن هذه التناقضات مخالفته لقواعد اللغة العربية، ومنها ما نحن في صدد الحديث عنه.

وهكذا نرى ابن الأثير كيف أخرج المؤاخاة من عالم الغموض إلى ساحة النهوض،ومن إيهام المباني إلى وئام المعاني وكشف لنا أسرارها المكمونة في الخفايا، ليتوقد بها أذهان البرايا .

المبحث الثاني: قطع النظير عن النظير في المعاني بين القرآن والشعر.

أشار البلاعيون في كتبهم كالمبرد في الكامل والآمدي في الموازنة ،وابن الأثير في المثل السائر وغيرهم إلى ما سماه بعضهم بالمواخاة بين تركيب معانى الكلمة سواء في المفرد أو الجملة، تحت عنوان مختلفة.وإختار المبرد هذا العنوان "في نقد الشعر» حيث يقول:

وحدث[١٤] أن الكميت أنشد نصيبا فاستمع له فكان فيما أنشده:

وقد رأينا بها حوراً منعمةً * وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنَبُ[١٥]

فثنى نصيب خنصرة فقال له الكميت: ما تصنع؟ فقال: أحصى خطأك تباعدت في قولك: تكامل فيها (الدل والشنب) هلا قلت: كما قال ذو الرمة:

لمياءُ في شفتيها حوَّةٌ لَعسٌ * وفي اللِّثاثِ وفي أنيابها شنبُ [١٦]

ثم يعلق المبرد بفكرته الثاقبة على هذا الحوار البلاغي الأدبي،كاشفا للقارئ غطاء الخلل في البيت الذي قاله الكميت، قال أبو العباس:- وهو يقصد نفسه- «والذي عابه نصيب من قوله: تكامل فيها الدل والشنب، قبيح جدا،-لماذا قبيح جدا أيها شيخنا المبرد- وذلك أن الكلام لم يجر على نظم، ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها وأول ما يحتاج إليه القول أن

---

[١٣] سورة الأنعام –آية -١

[١٤] الكامل فى اللغة والأدب لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد جـ - ١، ص – ٣٣٥.

[١٥] هذا هو صدر البيت في رواية الآمدى في الموازنة، وابن الأثير فى المثل السائر و المبرد في الكامل و أبي هلال العسكرى روى لأبي تمام في الصناعتين قريبا منه وصاحب خزانة الأدب.

[١٦] الشنب: عذوبة الأسنان ورقتها

ينظم على نسق وأن يوضع على رسم المشاكلة).[١٧] أألم تقف معي على عبارة المبرد- رحمه الله- قليلا،ولماذا لم يقل المبرد في نقده على هذا البيت مثلا بعيدا من الصواب،أو خطأ، أو فيه نظر،أومخل،وهل هذا التعبير القاسي سهو من المبرد أم قصد ؟؟ ثم هل وقف على ما يشبه هذا الإسلوب في الفرآن أم لا؟ كما أرى أنه مقصود وأن سبب ذلك هو مدى تذوقه للبيت بالإخلال بالنظم السليم، بينما حكم غيره –ابن رشيق-من النقاد على نفس البيت وهو مظنة الغلط كما سيأتي عند ابن الأثير، لتعلم علم اليقين أن هناك ذوقا متفاوت الدرجات بين النقاد، ثم يشير إشارة لطيفة إلى ما عرف عند الحداثيين بالعلاقات الأسلوبية بين الكلمات فقال: «وخبرت أن عمر بن لجإٍ قال لابن عم له: أنا أشعر منك، قال له، وكيف؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه.[١٨]هذه العبارة هي من المصطلحات الخاصة بالبلاغيين، وكانوا يراد بها كناية عن درجة البعد والقرب بين المعنى واللفظ،في أداء المراد فافهم.

و قال ابن رشيق في تعليقه :» وزعم آخرون أنها تركيب الشيء في غير موضعه، كقول الكميت بن زيد: وهذا البيت مما عابه عليه نصيب.[١٩]

أما ابن الأثير توسع،بالمعاني أولا فقال: « المؤاخاة بين المعاني.[٢٠] ومما يتصل بهذا الضرب ضرب من الكلام يسمى «المؤاخاة بين المعاني» و»المؤاخاة بين المباني». وكان ينبغي أن نعقد له بابا مفردا، لكننا لما رأيناه ينظر إلى التقابل من وجه وصلناه به.

وعرفه: أما المؤاخاة بين المعاني فهو أن يذكر المعنى مع أخيه، لا مع الأجنبي. مثاله أن تذكر وصفا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به. فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا في الصناعة وإن كان جائزا.

فمن ذلك قول الكميت:

أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالْعَلْيَاءِ رَافِعَةٌ ** وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا «الدَّلُّ وَالشَّنَبُ

فعلق عليه قائلا: فإن (الدل) يذكر مع (العنج) وما أشبهه، و(الشنب) يذكر مع (اللعس) وما أشبهه. وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا. وهو مظنة الغلط، لأنه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحذق بحيث توضع المعاني مع أخواتها لا مع الأجنبي منها.[٢١]

وقرأت في كتاب (الأغاني)[٢٢] لأبي الفرج أنه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة فأنشد

[١٧] المصدر السابق ج١- ص- ٣٢٦.

[١٨] المصدر السابق –ج-١-ص-

[١٩] - العمدة في محاسن الشعر وأدبه-ج-١-ص- ٢٠٢- تحقيق محي الدين عبد الحميد ط- طلائع

[٢٠] المثل السائر لابن الأثير جـ - ٣ – ص – ١٨٢ في التناسب بين المعاني

[٢١] ينظر الأغاني للأصفهاني جـ - ١ – ص – ٤٣١ ت – أحمد الشنقيط – ط – مطبعة التقدم.

[٢٢] المصدر السابق.

الكميت «أم هل طعائن.. البيت» فعقد نصيب واحدة فقال له الكميت: ماذا تحصى؟ فقال: أخطأك، فإنك تباعدت في القول أين الدل من الشنب؟ فقلت ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لَمْياءُ في شَفَتَيْها حُوَّةٌ لَعَسٌ ** وفي اللِّثاثِ وفي أنيابها شنبُ

ورأيت أبا نواس يقع في ذلك كثيرا كقوله في وصف الديك:[٢٣]

لَهُ اعْتِدَالٌ وانْتِصابُ قَدٍّ ** وجِلْدُهُ يُشْبِهُ وَشْيَ الْبُرْدِ

كَأَنَّهَا الْهُدّابُ في الفِرِنْدِ ** مُحْدودِبُ الظَّهْرِ كَريمُ الْجَدِّ[٢٤]

فإنه ذكر (الظهر) وقرنه بذكر (الجد)، وهذا لا يناسب هذا، لأن (الظهر) من جملة الخلق و(الجد) من النسب، وكان ينبغي أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويواخيه.

وكذلك أخطأ أبو نواس في قوله أيضا:

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِيناً ** مَبْرورَةً لاَ تُكَذَّبْ

بِرَبِّ زَمْزَمَ وَالحَوضِ .** وَالصَّفا وَالمَحَصَّبْ[٢٥]

فإنه ذكر (الحوض مع (زمزم) و(الصفا) و(المَحَصَّبْ) غير مناسب، وإنما يذكر (الحوض) مع (الصراط والميزان) وما جرى مجراهما. وأما (زمزم) و(الصفا) و(المَحَصَّبْ) فيذكر معها (الركن والحطيم) وما جرى مجراهما.

وكل هذا لا يتفطن لوضعه في كل الأوقات. وقد يغلب على السهو في بعض الأحوال حتى أصل هذا الطريق في وضع المعاني مع أنسابها وأقاربها، ثم إن كنت أتأمل ما صنعته بعد حين فأصلح ما سهوت به.

وفي هذا يقول د/حسن إسماعيل عبد الرازق في كتابه[٢٦] ويلاحظ أن ما سماه ابن الأثير هنا باسم المؤاخاة بين المعاني هو ما عرف عند الخطيب باسم (مراعاة النظير).

هذا في الشعر أما في النثر الذي لا يتسع فيه ما يتسع في الشعر فقد ورد مثل هذا النمط وهذا النظم فيه كما في قول الله تعالى من سورة طه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى* وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾

فقد جمع بين الجوع والعري مع أن المعقول والمتوقع أن يجمع بين الجوع والظمأ، كما جمع بين الأكل والشرب الذين هما ضدهما في كثيرمن الأيات كقوله تعالي: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا

[٢٣] ديوان ذي الرمة جـ - ١ – ص – ٣٣ – ت – د/ عبد القدوس أبو صالح م/طريين.

[٢٤] ديوان أبي نواس – ص – ٦٥ – ت – أحمد عبد الحميد الغزالي – ط – دار الكتب العربي بيروت.

[٢٥] ديوان أبو نواس -ص – ١٢٤

[٢٦] كتاب البلاغة في المثل السائر لضياء الدين بن الأثير تأليف د/ حسن اسماعيل عبد الرازق ص – ٢٠٢ طبع دار الطباعة المحمدية.

زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٢٧] وهناك قاعدة تقول: «الضد بالضد تتميز الأشياء

وتكلم عنه صاحب الحاشية[٢٨] على الكشاف فسماها قطع النظير عن النظير،فقال ولا حرج أن تسمي هذه الآية بقطع النظير عن النظير[٢٩]. وقال الإمام الألوسي في تفسيره

وفي الانتصاف أن في الآية سريعاً بديعاً من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير ، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم ولو قرن كل بشكله لتوهم المقرونان نعمة واحدة ، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً.[٣٠]

والآن نكتفي بهذا القدر لننتقل إلى النقطة الثالثة والأخيرة من هذا النوع من الأسلوب.

المبحث الثالث قطع النظير عن النظير بين السياق في القرآن والشعر

قال ابن رشيق:

غير أن ابن رشيق القيرواني ت ٤٦٣ هـ) معاصر عبد القاهر بحث هذا النوع في كتابه «العمدة في محاسن الشعر وآدابه «حيث عقد بابا سماه «باب المناسبة».

وقد اتسمت دراسته **بدراسة** تطبيقية في الموازنة بين الشعراء.

ومن يريد حقيقة الذوق البلاغي في القرآن، فعليه بمنهج الموازنة بين الشعراء،فهو مدخل تطبيقي على معرفة ذوق بلاغة الفرآن العليا. يقول: ومن الفرق المنفصل قول امرئ القيس:

وجعل بعض الأدباء من هذا الجنس قول امرئ القيس:

كأنِّيَ لمْ أركبْ جواداً للذَّةٍ * ولمْ أتبطَّنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ

ولم أسبَإِ الزِّقَّ الرَّوىَّ ولمْ أقلْ * لخيليَ كرِّى كرَّةً بعدَ إجفالِ[٣١]

وكان قد ورد على سيف الدولة رجل بغدادي يعرف بالمنتخب، لا يكاد يسلم منه أحد من القدماء والمحدثين ولا يذكر شعر بحضرته إلا وظهر على صاحبه بالحجة الواضحة فأنشد يوما هذين البيتين فقال: قد خالف فيهما وأفسد، لو قال:

---

[٢٧] سورة المائدة آية -٣١

[٢٨] الإنتصاف أحمد ابن المنير السكندرى

[٢٩] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.للزمخشرى

[٣٠] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي

[٣١] ديوان امرئ القيس، ص – ٣٥، يقصد الشاعر أنه جعل بطنه عليها فكأنها بطانة لي. يقول: ذهب عني الشباب. وتغيرت إلي الحال، وكأني لم أستلذ الكواعب ذوات الحلي وركوب الخيل للصيد. وكأني لم أشرت الزق المملوء خمرا، ولم أعطف في أثر من انهزم من أصحاب على العدو ماكر عليهم. والأجفال: الانهزام والانقلاع من الموضع بسرعة. انظر ديوان امرئ القيس ص – ٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط – دار المعارف.

كأنّيَ لم أركبْ جواداً ولم أقلْ * * لخيليَ كرِّى كرَّةً بعد إجفالِ

ولم أسبإ الزِّقَّ الرَّوى للذَّةٍ * * ولم أتبطَّن كاعباً ذات خلخال [٣٢]

لكان قد جمع بين الشيء وشكله، وذكر الجواد والكري بيت، وذكر النساء والخمر بيت، فالتبس الأمران لدي سيف الدولة، وسلموا له ما قال. فقال رجل ممن حضر: لا كرامة لهذا الرأي، فالله أصدق منك حيث يقول ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى* وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ فأتى بالجوع مع العرى ولم يأت به مع الظمأ. فسر سيف الدولة وأجازه بصلة حسنة.

قال صاحب الكتاب: قول امرئ القيس أصوب ومعناه أعز وأغرب، لأن اللذة التي ذكرها إنما هي الصيد. هكذا قال العلماء إلى أن قال:».. ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة، وفضيلةشريفة تدل على السلطان. وكذلك البيت الثاني: لو نظمه على ما قال لكان ذكر اللذة حشوا لا فائدة فيه. لأن الزق لا يسبأ إلا باللذة، فإن جعل القوة كما جعلناها فيما تقدما الصيد قلنا: في ذكر الزق الروي «كناية» ولكن أمرئ القيس وصف نفسه بالقوة والشجاعة بعد أن وصفها بالتملك والرفاهية.

وأما احتجاج الآخر بقول الله عز وجل : «فليس من هذا في شيء، لأنه أجرى الخطاب على مستعمل العادة. وفيه مع ذلك التناسب، لأن العادة أن يقال بجائع عريان، ولم يستعمل في هذا الموضع عطشان ولا ظمآن. وقوله تعالى «تظمأ» و»تضحى» متناسب، لأن الضاحي هو الذي لا يستره شيء عن الشمس والظمأ من شأن من كانت هذه حاله.»[٣٣]

نعم قال ابن رشيق أن الاحتجاج بالآية ليس في محل النزاع أو سياق الكلام وأنا معه جزئيا لاكليا فيما ذهب إليه، لسببين، أولا: أن الآية محتملة إذ فيها خصوص وعموم،وثانيا: لم تجري الآية على العادة في النظم كما قال، فهو خلاف ما قال بعض المفسرين أنها من قطع النظير عن النظير، ثمهل رأي ابن رشيق ورود هذا النوع من النظم في القرآن أم لا،؟

وأنا أرى أن هذا الأسلوب من النظم وهذا النوع من قطع النظير عن النظير ورد في القرآن فالقطع هنا وقع في السياق أي قطع السابق عن اللاحق، وليس في الكلمات بعضها لبعض. ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا

---

[٣٢] ديوان امرئ القيس. وانظر جمع الجواهر في الملح والنوادر لأبي اسحاق القيرواني، ت/علي محمد البيجاوي، ص – ٣١٤، ط – دار الجيل بيروت.وقال أبو هلال العسكرى معلقا: لأنَّ ركوبَ الجواد مع ذكر كرور الخيل أجود، وذكر الخمر مع ذكر الكواعب أحسن.

قال أبو أحمد: الذي جاء به امرؤ القيس هو الصحيح، وذلك أن العرب تضع الشيء مع خلافه فيقولن: الشدة والرخاء، والبؤس والنعيم، وما يجرى مع ذلك. وقالوا في قول ابن هرمة:

[٣٣] العمدة لابن رشيق جـ١ - ص ٣٥٨-٣٥٩.

مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٣٤] ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

أما قوله {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فالمعنى : عزيز في انتقامه، حكيم في شرائعه وتكاليفه. قال الأصمعي كنت أقرأ سورة المائدة ومعي أعرابي ، فقرأت هذه الآية فقلت {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} سهواً ، فقال الأعرابي : كلام من هذا ؟

فقلت كلام الله. قال أعد ، فأعدت : والله غفورٌ رحيم ، ثم تنبهت فقلت {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فقال : الآن أصبت ، فقلت كيف عرفت ؟

قال : يا هذا! عزيزٌ حكيم فأمر بالقطع فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع [٣٥]

كان صدر الآية غير موافق لعجز الآية ،وكان الظاهر أن يختم بقوله والله عزيز ذو انتقام أو غير ذلك من سياق متناسبة ونظيرها قوله تعالى: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [٣٦]

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله أيضا:

أَحْسَنُ مِنْ مَنْزِلٍ بِذِي قارِ ** مَنْزِلُ حَمَّارَة وَحَمَّارِ

وَشَمُّ رَيْحَانَةٍ وَنَرْجِسَةٍ ** أَحْسَنُ مِنْ أَيْنُقٍ بِأَكْوَارِ[٣٧]

فالبيت الثاني لا مقارنة بين صدره وعجزه. وأين شم ريحان من الأينق بالأكوار؟وكان ينبغى أن يقول شم الريحان أحسن من شم الشيح والقيصوم، وركوب الفتيات الرود، أحسن من ركوب الأنيق بالأكوار.

وختاما هذا غيض من فيض مما على هذا النمط وذلك الأسلوب،الذي خالف بعض القاعدة النحوية المعروفة في المباني، والعادة المألوفة في المعاني، والذي جعل بعض أرباب النقد والبلاغة كالمبرد وابن الأثير يبدلون أراءهم ويغيرون مواقفهم النقدية تجاه بعض فحول الشعراء مثل أبي نواس وأبي تمام غيرهم مما ورد على هذا الأسلوب،إذا تضح لهم ما يؤيده من النص الأعلى وهو القرآن الكريم،وقد بيانا كيف قطع القرآن ارتباط الكلمة عن نظيرها في المبنى، حسب القواعد النحوية، أو في المعنى حسب استعملها عند العرب الخلص، في بعض المواضع، وذكرنا بعض القواعد التى أثبتها البلاغيون :ك»كل ما وجب بلاغة وجب نحوا وليس

[٣٤] سورة المائدة –آية-٣٤

[٣٥] اللباب في علوم الكتاب ابن عادل الدمشقي-ج-٧-ص-٣٣٢ تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض دار الكتب العلمية ومفاتيح الغيب للرازي جزء : ١١ -ص- ٣٥١.

[٣٦] سورة المائدة –آية-١١٨

[٣٧] وفي ديوان أبي نواس– ص – ١٦٠ بالأنبار بدلا من خمار.

كل ما وجب نحوا وجب بلاغة»،في المعاني : :القاعدة كل ما وجب لغة وجب بلاغة القاعدة: الضد بالضد تتميز الأشياء. القاعدة تتسع في الشعر ما لا يتسع في غيره. وتوصلنا في البحث إلى نتيجة مفادها أن هذا الأسلوب هو الأبلغ والأنسب ،لأداء مراد الله في كتابه،وأنه ليس بغريب عند أهل الذوق السليم والشعراء أهل المعرفة بفقه اللغة، وأن من يريد حقيقة الذوق البلاغي في القرآن، فعليه بمنهج الموازنة بين الشعراء،فهو مدخل تطبيقي على معرفة ذوق بلاغة الفرآن العليا.

كذلك توصلنا إلى أن المستشرقين قد جعلوا مثل هذا الأسلوب فرصة لهم في طعنهم في القرآن،وفي الحقيقة لا يوجد التناقض والتعارض في القرآن ولن يشم منه ريح ذلك إلا عديم الذوق،أو جاهل بأساليب اللغة العربية وفقهها أو المغرضون من المستشرقين وغيرهم، وكان هذا البحث هو بمثابة،وضع نقاط على الحروف في هذا الصدد.ولذا ونهيب بإخواني الطلبة والباحثين وخاصة المتخصصين في التفسير والحديث والفقه، أن يشدوا إزرهم في فهم اللغة العربية وفقهها من جوانبها وأسسها،ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم

بأن القرآن لا تناقض فيها ولن يكون أبدا ليتحقق وعد الله إنا نحن نزلنا الذكرى و'نا له لحافظون.

ثبت المراجع والمصادر.

-اللباب في علوم الكتاب ابن عادل الدمشقي-ج-٧-ص-٢٣٣ تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض

دار الكتب العلمية

القيرواني- جمع الجواهر في الملح والنوادر لأبي اسحاق القيرواني، ت/علي محمد البيجاوي، ص – ٤١٣، ط – دار الجيل بيروت.

-العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيروانى، تحقيق محي الدين عبد الحميد.

-ديوان أمرؤ القيس

الرازي-مفاتيح الغيب فخر الدين للرازي

جار الله -الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.للزمخشرى

شهاب الدين الألوسي- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني .

-الصناعتين في الشعر والنثر

عبد الرازق -كتاب البلاغة في المثل السائر لضياء الدين بن الأثير تأليف د/ حسن اسماعيل عبد

الرازق طبع دار الطباعة المحمدية.
ابن المنير- الإنتصاف حاشية على الكشاف لأحمد ابن المنير السكندرى.
الأصفهاني - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ت – أحمد الشنقيط – ط – مطبعة التقدم.
ذي الرمة- ديوان ذي الرمة ت – د/ عبد القدوس أبو صالح م/طريين.
ابو نواس- ديوان أبي نواس ت – أحمد عبد الحميد الغزالي – ط – دار الكتب العربي بيروت
المبرد- الكامل فى اللغة والأدب لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد.
ابن الأثير- المثل السائر لصياء الدين ابن الأثير ت – أحمد الجوفي – ط – دار الرفاعي الرياض